خصائص النظم البلاغي في سورة الأعلى

د. سعد الدين كامل عبد العزيز شحاته

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ويعد:

فوجوه إعجاز القرآن الكريم كثيرة، لعل أهمها هو نظمه العجيب، وتأليفه المتناهي في البلاغة إلى الحد الذي يعلم منه عجز الخلق عنه، وفصاحته التي تقصر عنها قوى البشر، وأجمع علما الأمة أنه متناه في بيانه وبراعته إلى درجة لا يطمح إليها بالفكر.

واستجلاء أسرار إعجاز القرآن الكريم من أعظم النعم التي ينعم الله بها على عبده، فيتذوق أسلوبه ويعرف أسباب عجز الجن والإنس عن أن يأتوا بمثله، ومنذ أن منّ الله تعالى عليّ بسكنى المدينة النبوية نلت بفضله وكرمه وجوده ومنته، شرف البحث في أسرار إعجاز القرآن الكريم، فقدمت للمكتبة دراستين في البلاغة القرآنية هما:

"تأملات بلاغية في قصة سيدنا داود في القرآن الكريم".

والثانية: "النفي والاستثناء في القرآن الكريم (دراسة تحليلية)".

وما زال عطاء الله ومدده وتوفيقه لي، فقد أعانني على إكمال دراسة ثالثة بعنوان:

"من خصائص النظم البلاغي في سورة الأعلى".

وأهم ما حفزني إلى اختيار هذا الموضوع عدة حوافز أجملها في الآتي:

١- حب النبي -صلى الله عليه وسلم- لها، وقراءته بها في العيدين والجمعة.

٢- ما تضمنته هذه السورة الكريمة من إيجاب التنزيه للأعلى وذكر بعض صفاته، وأمر الوحي والقرآن والموعظة الحسنة لمن ينتفع بها.

٣- رغبتي الشديدة في تذوق المزيد من البلاغة القرآنية التطبيقية.

وجاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة، ثم الفهارس على النحو التالي:

المقدمة: تناولت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره ومنهجه.

التمهيد: تناولت فيه أسماء السورة وفضائلها ووجه مناسبتها لما قبلها، أغراضها، والمواضيع التي عالجتها، والمراد بدراسة خصائص النظم.

الفصل الأول: النظم في سورة الأعلى، ويتكون من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نظم الآيات التي تحدثت عن تنزيه الأعلى وذكرت دلائل قدرته ووحدانيته.

المبحث الثاني: نظم الآيات التي تحدثت عن القرآن وتيسير حفظ الرسول له.

المبحث الثالث: نظم الآيات التي تحدثت عن الدعوة وأحوال الناس معها.

الفصل الثاني: خصائص النظم.

الخاتمة: وبها أهم النتائج.

الفهارس: المصادر والمراجع ، الموضوعات.

أما المنهج الذي تقوم عليه هذه الدراسة بمشيئة الله -تعالى- فهو منهج التحليل والاستقراء.

وهذا المنهج يقوم على:

أولا- تناول النظم البلاغي في الآيات حسب ترتيب ورودها في السورة، وفي ذلك حفاظ على العلاقات اللفظية والمعنوية بين الآيات، فتظهر لنا الأسرار من وراء هذا الترتيب الذي اختاره الله تعالى للآيات في السورة، وللجمل داخل كل آية، وللكلمات داخل كل جملة، ولأدوات الربط، كما يظهر لنا سر اختيار الله تعالى للبديل الأوفق.

ثانياً- محاولة الجمع بين النظائر في خصائص النظم البلاغي بأن يجمع النظير إلى نظيره من الأبواب التي يتصرف فيها النظم، ثم النظر فيها لاستجلاء خصائصها العامة.

التمهيد

فضائل السورة:

عن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ"سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى"، و"هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ "[1]، وإن وافق العيد يوم الجمعة قرأهما جميعاً.

وعن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحب هذه السورة "سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى"[2].

وهذه السورة مكية وآياتها تسع عشرة، وقيل: مدنية لذكر العيد والفطر فيها، ورد ذلك بما في البخاري عن البراء: أن أول من قدم علينا من الصحابة مصعب بن عمير -رضي الله عنه- وابن أم مكتوم فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، -صلى الله عليه وسلم- حتى قرأت:

---

(١) الحديث صحيح، رواه مسلم ح(٨٧٨)،وأبو داود ح(١١٢٢)، والترمذي ح (٥٣٣)، وأحمد(٤/٢٧٦،٢٧٣).

(٢) رواه أحمد في المسند:(١/٩٦)، فضائل القرآن، المستغفري، تحقيق وتخريج د/أحمد فارس السلوم:(٢/٦٦٦، ٦٦٧).

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى في سور مثلها، وذكر العيد والفطر فيها غير مسلم، ولو سلم فلا دلالة فيه على ذلك"[1].

وأخرج الطبراني عن عبد الله بن الحارث قال: آخر صلاة صلاها رسول الله المغرب فقرأ في الركعة الأولى: سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى، وفي الثانية: بِقُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ.

وجه مناسبة سورة الأعلى لما قبلها "سورة الطارق":

إن الله عز وجل ذكر في سورة الطارق خلق الإنسان وأشير إلى خلق النبات بقوله تعالى:"{وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ} (سورة الطارق:١٢)، وذكر في سورة الأعلى :{خَلَقَ فَسَوَّىٰ} (الأعلى: ٢). وقوله سبحانه: {أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ} (الأعلى: ٤، ٥).

وقصة النبات في سورة الأعلى أوضح وأبسط، كما أن قصة خلق الإنسان هناك كذلك، نعم إن ما في هذه السورة أعم من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات، وذكر البقاعي في نظم الدرر:"لما تضمن أمره سبحانه للرسول -صلى الله عليه وسلم- في آخر سورة الطارق بالإمهال والنهي عن الاستعجال، الذي هو منزه عنه، لكونه نقصاً كما أنه أشار -سبحانه- في آخر الطارق إلى نفي الهزل عن القرآن الذي وسموه به وهو غاية البعد عنه، إلى غير ذلك مما أشير إليه في سورة الطارق،

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي:(٩/٤٦٨).

أمر أكمل خلقه في أول سورة الأعلى بتنزيه اسمه لأنه وحده العالم بذلك حق علمه"[1].

أسماؤها:

ٱلْأَعْلَى، وسَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى.

أغراض السورة والمواضيع التي عالجتها:

١- الذات العلية وبعض صفات الله جل وعلا وذكر الدلائل على القدرة الوحدانية.

٢- الوحي والقرآن المنزل على خاتم الرسل -صلى الله عليه وسلم-. وتيسير حفظه عليه الصلاة والسلام.

٣- الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحية، ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان[2].

٤- وإيجاب التنزيه للأعلى سبحانه وتعالى عن أن يلحق ساحة عظمته شيء من شوائب النقص كالاستعجال في أمر إهلاك الكافرين، أو غيره أو العجز عن البعث أو إهمال الخلق سدى يبغى بعضهم على بعض بغير حساب، أو أن يتكلم بما لا يطابق الواقع، أو بما يقدر أحد أن يتكلم بمثله، كما أذنت بذلك الطارق مجملا وشرحته سورة الأعلى مفصلا، وعلى كل المعاني السابقة دل كل من اسمي هذه السورة سبح والأعلى[3].

---

(١) (٣٩٣/٨).

(٢) إيجاز البيان في سور القران، محمد علي الصابوني:(ص: ٢٩٣) ط مكتبة الغزالي.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي:(٣٩٣/٨) ط دار الكتب العلمية.

المراد بدراسة خصائص النظم:

المراد بدراسة الخصائص هي دراسة الكيفيات ومقتضيات الأحوال[١] أو: تتبع خصائص تراكيب الكلام في الإفادة[٢].

أما المراد بدراسة النظم فهي: دراسة كيفية وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو[٣] مع دراسة الأبواب التي يتصرف فيها النظم البلاغي للكلام، والتي هي بغية الناظم بنظمه، يقول عبد القاهر:"وذلك أنَّا لا نعلمُ شيئاً يبتغيه النّاظمُ بنظمِه غيرَ أنْ ينظرَ في وجوهِ كلّ بابٍ وفُروقه فينظرُ في الخبرِ....." وبعد ما ينتهي من تعداد هذه الأبواب فيقول:"فيصيب كلاً من ذلك مكانَهُ ويستعملهُ على الصّحَّة وعلى ما ينبغي له"[٤].

---

(١) خصائص التراكيب، أبو موسى: (٤٣).

(٢) المفتاح، السكاكي: (٦٨).

(٣) الدلائل، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر:(٨٢)

(٤) الدلائل:(٨٢)

الفصل الأول

المبحث الأول: تنزيه الله - تعالى - وبيان استحقاقه له.

قال تعالى:{سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥} (الأعلى:١- ٥).

{سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ }: معنى التسبيح: التنزيه عن النقائص، وهو من الأسماء التي لا يضاف لغير اسم الله تعالى، وكذلك الأفعال المشتقة من هذا الاسم: سبح يسبح تسبيحا، الأمر والماضي والمضارع، وكذلك اسم المصدر: سبحان الله

وصيغة الأمر في قوله تعالى: سبح: تقتضي أمرا ومأمورا به، وسراً بلاغياً من وراء ابتداء هذه السورة الكريمة بهذا الأمر.

أما الآمر فهو الله تعالى وأما المأمور فهو الرسول -صلى الله عليه وسلم-وأمته ، وأما المأمور به، فهو تنزيه الله تعالى عن النقائص، أو عن أي عيب أو نقص يلحقه به المشركون، وهذا تكليف إلزامي بوجوب التسبيح على جهة الاستمرار تنزيها لله تعالى، فالأمر هنا على حقيقته لكونه على سبيل الوجوب، ولكونه صادرا عن الله تعالى ويمكن خروج الأمر هنا عن معناه الحقيقي وهو الوجوب إلى معنى الإرشاد إلى معرفة أن الله منزه عن النقائص والنقائض.

{ٱسْمَ رَبِّكَ } الاسم الذي هو ألف ، سين، ميم، يأتي في مواضيع من الكلام الفصيح، يراد به المسمى، ويأتي في مواضع يراد به التسمية، فمن أراد أن الاسم هنا بمعنى التسمية، كان المعنى: سبح ربك، أي نزهه عن النقائض

والنقائص، واستدل أصحاب هذا الرأي إلى أن إطلاق الاسم بمعنى المسمى معروف في كلام العرب ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر**

لكن صاحب أضواء البيان في تفسير القران علق على هذا الرأي قائلا:"ولا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم، لأن أسماء الله ألحد فيها قوم، ونزهها آخرون عن كل ما لا يليق، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن، وفي ذلك أكمل تنزيه لها، لأنها مشتملة على صفاته الكريمة، وذلك في قوله {وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا} (الأعراف: ٨٠) وقوله تعالى:{أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ} (الإسراء: ١١٠)"[(١)].

أما الرأي الثاني وهو أن المراد بالاسم التسمية نفسها على معنى : نزه اسم ربك عن أن يسمى به صنم أو وثن، فيقال له: رب أو نحو ذلك[(٢)].

ويذهب أبو حيان في البحر المحيط إلى الرأي الثاني أيضا، فيقول: الظاهر أن التنزيه يقع على الاسم،ى أي نزهه عن أن يسمى به صنم أو وثن، فيقال له: رب أو إله، وإذا أمر بتنزيهه اللفظ أن يطلق على غيره فهو أبلغ، وتنزيهه الذات أحرى)[(٣)].

---

(١) أضواء البيان:(١٩٩/٧) .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٥/ ٤٦٩)دار الكتب العلمية،.

(٣) البحر المحيط: أبو حيان:(٦٤٤/٨).

وقيل: معنى:{سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ}، نزه اسم ربك عن ذكرك له إلا وأنت خاشع متذلل[1].

ومن نافلة القول أن بعض المفسرين جعل لفظ "اسم" زائدا ولا ضرورة لذلك، فتنزيه الاسم هو تنزيه لصاحب الاسم[2].

"وإذا عدي فعل الأمر بالتسبيح هنا إلى اسم تعين أن المأمور به قول دال على تنزيه الله ....."، أما تفكر العبد في عظمة الله تعالى وترديد تنزيهه في ذهنه، فهو تسبيح لذات الله ولا يسمى تسبيح اسم الله، لان ذلك لا يجري على لفظ من أسماء الله تعالى، فهذا تسبيح ذات الله، وليس تسبيح لاسمه، وهذا ملاك التفرقة بين تعلق لفظ التسبيح بلفظ اسم الله نحو: :{سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ}، وبين تعلقه بدون اسم نحو: {وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا}(الإنسان: ٢٦)، ونحو: {وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ}(الأعراف: ٢٠٦)، فإذا قلنا: الله أحد، أو قلنا:{هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ} (الحشر: ٢٣) إلى آخر السورة، كان ذلك تسبيحا لاسمه تعالى، وإذا نفينا الإلهية عن الأصنام؛ لأنها لا تخلق، كان ذلك تسبيحا لذات الله لا لاسمه، لان اسمه لم يجر عليه في هذا الكلام أخبار ولا توصيف[3].

سبح اسم ربك " اسم مضاف إلى رب ، أي معرف بالإضافة وهما بمعنى واحد، لان الاختلاف بين اللفظين كاف في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه،

---

(١) جامع البيان الطبري: (١٨٤/٣٠).

(٢) الجدول في إعراب القران وصرفه وبيانه محمود صافي: ٣٠٥/١٥)ط دار الرشيد.

(٣) التحرير والتنوير: (٢٧٤/٣٠).

وهو كثير في القرآن والعربية، نحو:{وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ } (يوسف: ١٠٩)، والدار هي الآخرة، والمضاف إليه رب، دون علم الجلالة"الله"، نحو: سبح اسم الله، لما يشعر به وصف الرب من أنه الخالق المدبر. أما إضافة الرب إلى الكاف ضمير الرسول -صلى الله عليه وسلم- فلتشريفه بهذه الإضافة وأن يكون له حظ زائد على التكليف بالتسبيح.

"الأعلى" وتأمل معي وصف الرب سبحانه بالأعلى، ليوحي أن الله تعالى مستحق للتنزيه بصفات ذاته، كما أنه -تعالى- عطف على تلك الصفة: ثلاث صفات أخرى، {ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ} {وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ} {وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ} (الأعلى: ٢-٤).

وبالتأمل في تلك الصفات نجد أنها تدل على مطلق تصرف قدرته فكان عطف الصفات مؤذناً بأنه -تعالى- مستحق للتنزيه -أيضاً- لصفات إنعامه على الناس، وإيثار الله تعالى هذا الوصف "الأعلى" في هذه السورة الكريمة؛ لانها تضمنت التنويه بالقرآن والتثبيت على تلقيه. وما تضمنه من التذكير؛ وذلك لعلو شأنه فهو من متعلقات وصف العلو الإلهي إذ هو كلامه، وجوز ابن هشام في مغني اللبيب كون الأعلى صفة لاسم ربك[1]

والوصف بالأعلى في هذه الآية:{سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى } زائد على قوله تعالى في سورة العلق:{ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ } (العلق: ١)، مراعاة للفاصلة وليس الوجه هو مراعاة الفواصل فحسب، بل إن ما في سورة

(١) مغني اللبيب ابن هشام: (٧٣٩)دار الفكر.

الأعلى اقترن اسم الرب بالتسبيح، والتسبيح تنزيه، والتنزيه علو، فاقتضى الأعلى فهو توجه محض إلى الأعلى ولذلك أخر {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ }[1].

وفي سورة العلق اقترن اسم الرب بالقراءة :{بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ }، فهو تسبيح مع تكليف، فاقتضى حذف "الأعلى" لئلا يستغرقه شهود الخلق، فلا يقوى على أداء الرسالة في الأرض"[2].

ولم يُعَدّ وصفه سبحانه بالأعلى من عداد الأسماء الحسنى استغناء باسمه تعالى "العلي"

لأن أسماء الله توقيفية.

وفي كتب الحديث أن هذه الآية:{سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى } حينما نزلت قال النبي –صلى الله عليه وسلم-:"اجعلوها في سجودكم"، ليقرن أثر التنزيه الفعلي بأثر التنزيه القولي.

ذكر السيوطي أن ابن أبي الإصبع قد أفرد فواتح السور بكتاب سماه" بالخواطر السوانح في أسرار الفواتح ثم قال: وها أنا الخص هنا ما ذكره مع زوائد من غيره[3] ، وذكر الزركشي أن الله سبحانه وتعالى افتتح كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شي من السور عنها ، النوع وقد افتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها، النوع الأول: الاستفتاح بالثناء، وقسم الثناء إلى قسمين: إثبات لصفات المدح،

---

(١) أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القران لما فيه من الحجة والبيان– الكرماني، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا(ص: ٢٤٨)، ط دار الفضيلة.

(٢) نفسه: ص: ٢٤٩).

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن:(٦١/١)

ونفى وتنزيه عن صفات النقص، وجعل من الإثبات قوله تعالى:{ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ الحمد لله} في خمس سور، و تبارك.

والتنزيه نحو قوله تعالى:{سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ }"وقوله تعالى:{سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى }، وقوله تعالى:{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ } وكلها في سبع سور، فهذه أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء على الله نصفها لثبوت صفات الكمال، ونصفها لسلب النقائص، وهو سر عظيم من أسرار الألوهية"[1]

وذكر الزمخشري: أن سبح جاء في بعض السور على لفظ الماضي وفي بعضها على لفظ المضارع، وكل واحد منهما معناه أن من أسند إليه التسبيح أن يسبحه، وذلك هجيراه، وديدينه[2]، وقريبا من ذلك ذكر ابن جماعة في كتابه :"كشف المعاني": أنه لما أخبر أولا بأنه سبح له ما في السموات والأرض أخبر أن ذلك التسبيح دائم لا ينقطع، وانه دائم ببقائه، ودائم بدوام صفاته الموجبات لتسبيحه[3]

وبداية السورة الكريمة بهذه الآية:{سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى} فيه براعة استهلال، فهذا الافتتاح بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن يسبح باسم ربه بالقول يؤذن بأنه سيلقى إليه عقبه بشارة وخيراً له وذلك قوله تعالى:{ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ}.

---

(١) البرهان في علوم القرآن الزركشي بتصرف:(١/١٦٤-١٦٥).

(٢) (الكشاف: ٤/٦٠).

(٣) كشف المعاني:(٣٥٠)..

والرازي يفترض كأن سائلا قال: الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة، فما الدليل على وجود الرب؟ فقال:{ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ }، واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء -عليهم السلام- والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال{ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ}(الشعراء: ٧٨)، وحكي عن فرعون أنه لما قال لموسى وهارون -عليهما السلام- {فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ}(طه: ٤٩)،قال له موسى -عليه السلام:{رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ}(طه: ٥٠)- وأما محمد -عليه السلام- فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله:{ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ }، هذه إشارة إلى الخلق ثم قال:{ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ } وهذه إشارة إلى الهداية، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة فقال:{ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ}[1]

قال تعالى:{ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ} .

اسم الموصول "الذي" مبني على السكون في محل جر صفة ثابتة للموصوف: ربك ، أو بدل منه ويجوز أن يكون صفة للأعلى لأن الصفة موصوفة في المعنى،[2] وكان الوصف بالذي في هذه الآية وما بعدها خاصة،

(١) التفسير الكبير الفخر الرازي:(١٣٨/٣١) ط دار الكتب العلمية طهران.

(٢) الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل- بهجت عبد الواحد صالح:(٤١٢/١٢)ط دار الفكر .

لأن الذي كما يقول عبد القاهر:"اجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجمل"[1].

وهذه الجمل هي التي تقع صلة لهذا الاسم المبهم الدلالة لو لا صلته الكاشفة للمراد به، فصلته{خَلَقَ فَسَوَّىٰ}، اشتملت على وصفين: وصف الخلق، ووصف تسوية هذا الخلق، وهذان الوصفان جملتان: جملة: {خَلَقَ}، وجملة:{فَسَوَّى}، وحذف المفعول به من الفعل "خلق"، وجوز العلماء في تقديره أن يكون عاما أو خاصا ، فالأول مذهب جمهور المفسرين لأن هذا هو شأن حذف المفعول إذا لم يدل عليه دليل، أي خلق كل مخلوق فيكون نظير قوله تعالى:{رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ}(طه: ٥٠)، وقدر الزجاج أن يكون المفعول به المحذوف خاصا، أي خلق الإنسان أو خلق آدم، كما روى عن الضحاك، والقرينة عن الزجاج والضحاك قرب فعل خلق من الفعل "سوى"، قال تعالى:{فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى}(الحجر:٢٩) والسر البلاغي هو الاختصار.

أما مفعول الفعل "سوى" فمحذوف أيضاً، والتقدير:فسوى خلقه ، والسر البلاغي من وراء حذفه هو رعاية الفاصلة والاختصار اعتمادا على القرينة.

وتأمل اختيار الله تعالى للفاء دون الواو أو "ثم" للربط بين الفعلين للإشارة إلى أن مضمون التسوية مقصودة في الصلة وأن ما قبله وهو الخلق توطئة له، فالفاء أفادت التفريع في الذكر باعتبار أن الخلق مقدم في اعتبار المعتبر على التسوية وإن كان حصول التسوية مقارنا لحصول الخلق، أي ترتب على الخلق تسويته.

---

(١) الدلائل: (١٩٩).

والرازي يفترض كأن سائلا قال: الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة ، فما الدليل على وجود الرب؟ فقال:{ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ}.

{وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ }" تأمل معي السر البلاغي من وراء إعادة اسم الموصول "الذي" في هذه الآية وما بعدها مع إغناء حرف العطف "الواو" عن تكريره للاهتمام بكل صلة من هذه الصلات وإثباتها لمدلول الموصول، وهذا من مقتضيات الإطناب (١).

وإيثار العطف بالفاء في قوله:{فَهَدَى}مثل إيثار العطف بها في قوله:{فَسَوَّى}، من باب عطف المسبب على السبب كما سبق أن أشرنا، أي هدى كل بقدر إلى ما قدر له، والمعنى قدر الأشياء كلها فهداها إلى أداء وظائفها كما قدر لها، قال الفراء: معناه هدى وأضل، واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأخرى، وقال مقاتل والكلبي: هدى الحيوان إلى وطء الذكور الإناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس للخير والشر والبهائم للمراتع، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير، وفي كل هداية (٢)، وهذه الأقوال محمولة على التمثيل لا على التخصيص (٣).

ولنا أن نتأمل إيثار الله تعالى صفتي التسوية والهداية من بين صفات الأفعال التي هي نعم على الناس ودالة على استحقاق الله تعالى للتنزيه، بين

---

(١) التحرير:(/ ٢٧٦).

(٢) المحرر الوجيز:(٤٦٩/٥)

(٣) البحر المحيط:(٦٤٥/٨).

الطاهر بن عاشور ذلك فقال:"لأن لهذين الوصفين مناسبة، بما اشتملت عليه من السورة فإن الذي يسوي خلق النبي -صلى الله عليه وسلم- تسوية تلائم ما خلقه لأجله من تحمل أعباء الرسالة لا يفوته أن يهيئه لحفظ ما يوحيه إليه وتيسيره عليه وإعطائه شريعة مناسبة لذلك التيسير قال تعالى:{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ }، وقال:{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ }(١)

وقوله:{وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ}.

أخرج المرعى: أنبت ما يرعاه الدواب من النبات الذي هو أصل في قيام المعاش؛ إذ هو غذاء الأنعام ومنه ما ينتفع به الناس في ذواتهم، والغثاء ما يبس وجف وتحطم من النبات.

والأحوى: قيل هو الأخضر الذي عليه سواد من شدة الخضرة والغضارة، وقيل: الأحوى: هو الأسود سوادا يضرب إلى الخضرة ،ومنه قول ذي الرمة(البسيط):

لمياء في شفتيها حوة لعس * وفي اللثاث وفي أنيابها شنب**

وهذا الوصف احوي لاستحضار تغير لونه بعد أن كان أخضر يانعا، وذلك دليل على تصرفه تعالى بالإنشاء والإنهاء.

واتجه جماعة من النحاة المتأخرين منهم ابن هشام إلى أن دلالة فاء العطف على التعقيب إنما يأتي من خلال السياق....فالعطف في الآية جاء لبيان قدرة الله ،وأن كل شي بيده سبحانه، وان كل مخلوق من صنع الله محدود بمدة بقاء ثم يصبح كالنبات الذاوي الذي تحمله الرياح والسيول، فالآيتان مثل يرمز إلى فناء الحياة الدنيا، مثلما يصبح النبات هشيما. وهنا يظهر واضحا وجه من وجوه الإعجاز القرآني في تراكيب العطف، فقد جاء "الفاء" فيهما لتدل على قصر

(١)التحرير والتنوير:(٢٧٧/٣٠).

مدة الحياة الدنيا، وسرعة زوالها إذا فنيت بالحياة الآخرة، ولو أن "ثم" استعملت هنا ما أدت هذه الدلالة البيانية الدقيقة"[1]

والمرعى: أصله إما مصدر ميمي أطلق على الشيء المَرْعِيّ من إطلاق المصدر على المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق، وإما اسم مكان الرعي أطلق على ما ينبت فيه ويرعى إطلاقا مجازيا بعلاقة الحلول ، كما أطلق اسم الوادي على الماء الجاري فيه، والقرينة جعله مفعولا لـ"أخرج".

وإيثار لفظ المرعى دون لفظ النبات لما يشعر به مادة الرعي من نفع الأنعام به ونفعها للناس الذين يتخذونها ،مع رعاية الفاصلة.

(١) أساليب العطف في القرآن الكريم د.مصطفى حميدة: (ص:١٣٦وما بعدها، ط مكتبة لبنان..

المبحث الثاني: القرآن وتيسير حفظ الرسول له.

قال تعالى:{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ }

بشره الله تعالى بإعطائه آية بينة وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه، وذهب الشهاب إلى أن المراد به هنا احد أقسام الوحي في القران كما ورد في البخاري عن عائشة أن الحارث بن هشام -رضي الله عنه-سال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:"أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس..."، وهو أن يسمع صدى يقر في قلبه بألفاظ ملهمة له مثبتة في صحائف حفظه المشرقة"[1].

فقوله: سنقرئك جمع بين أمرين، الأول: كونه بشارة إجمالية للنبي -صلى الله عليه وسلم- بخير يحصل له، فهذا وعد من الله تعالى بأن يعصم نبيه من نسيان ما يقرئه فيبلغه كما أوحي إليه ويحفظه من التفلت عليه، ولهذا المعنى جعل الطاهر بن عاشور الجملة استئنافا بيانيا لان البشارة تنشئ في نفس النبي -صلى الله عليه وسلم- ترقبا لوعد بخبر يأتيه فبشره بأنه سيزيده من الوحي، وجعل الطاهر الفاء هنا تفيد التفريع حيث فرع على هذه الجملة قوله تعالى:"فلا تنسى".

الثاني: كونه آية عظيمة تدل على صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- وانه نبي مؤيد من الله تعالى ويكون المعنى: سنجعلك قارئا بالهام القراءة بان نشرح صدرك ونقوي خاطرك حتى تحفظه بالمرة الواحدة حفظا لا تنساه فيكون حفظه -عليه السلام- لهذا الكتاب المطول من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة أمرا خارقا للعادة، ولا سيما هو أمي فيكون معجزاً"[2].

---

(١) حاشية الشهاب: (٩/٤٧٠).

(٢) الشهاب: (٨/٥٧٤).

ووعد الله عز وجل وبشارته للنبي -صلى الله عليه وسلم- قد تحققت ، فقد ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يعالج من التنزيل شدة إذا نزل جبريل، وكان مما يحرك شفتيه ولسانه يريد أن يحفظه ويخشى أن يتفلت عليه، فقيل له:{لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ} في سورة القيامة: ١٦)، وقد نزلت بعد سورة الأعلى، فقد تعين أن قوله :{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ }، قد تحقق للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وصيغة المضارع في قوله:"سنقرئك" توحي بالتجدد والحدوث حالا بعد حال.

وإنما ابتدئ بهذه تمهيدا للمقصود الذي هو لا{فَلَا تَنسَىٰٓ}وإدماجا للإعلام بأن القرآن في تزايد مستمر، فإذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد خاف من نسيان بعض ما أوحي إليه على حين قلته، فانه سيتتابع ويتكاثر فلا يخشى نسيانه.

والسين في قوله:{سَنُقْرِئُكَ} كما قال النحاة علامة على استقبال الفعل الذي دخلت عليه، فالأصل في دلالة المضارع الحال والاستقبال، فإذا دخلت السين جعلت دلالته في المستقبل، وهي تفيد تأكيد حصول الفعل أي أن الإقراء يستمر ويتجدد على وجه مؤكد.

وبداية الفعل{سَنُقْرِئُكَ} بالنون أوقع في نفس الملتقى من بدايته بالهمزة، لأن ضمير المتكلم المعظم نفسه مناسب تمام المناسبة في مقام البشارة، لأن فيه إقبال على المبشر صلى الله عليه وسلم.

النسيان: هو عدم خطور المعلوم السابق في حافظة الإنسان برهة أو زمانا طويلا.

{فَلَا تَنسَىٰٓ } والفاء كما سبق أن بينا أنها للتفريع، أما "لا" فإما أن

تكون نافية فتكون الجملة خبرية وإما أن تكون ناهية جازمة فتكون الجملة حينئذ إنشائية. وقيل:إنه خبر أريد به النهي فتكون الجملة خبرية لفظا إنشائية معنى.

والرأي الأول: مذهب الجمهور، وعللوا ذلك بأن الإنسان لا ينهى عن النسيان لأنه لا مدخل فيه للاختيار فلا تنهى عنه، لذلك ثبت الألف في آخر :{ {فَلَا تَنسَىٰٓ } في الخط والتلفظ.

أما الرأي الثاني: فهو مذهب بعض المفسرين ويظهر عليه كما قال الشيخ زاده بعض التكلف في توجيه ورود النهي عما ليس باختياري فقال: إن النهي وان كان عن النسيان صورة لكنه في الحقيقة نهي عن سببه، وهو الغفلة عن دراسته، وتكريره فكأنه قيل: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه، واحتاج من قال بهذا الرأي في توجيه ثبوت الألف إلى أن يقول: إنها مزيدة رعاية لفواصل الآي، وحمل قوله تعالى:{فَلَا تَنسَىٰٓ }، على الخبر أولى لعدم احتياجه إلى التكلف، كما "أننا إذا جعلناه نهيا كان معناه أن الله أمره بان يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهي الدراسة والقراءة، وهذا ليس في البشارة وتعظيم حاله مثل الأول" [1]، ولان الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتا معلوماً.

أما الرأي الثالث: وهو أن قوله:{فَلَا تَنسَىٰٓ }خبر أريد به النهي، فإليه ذهب الشهاب في حاشيته وجعله أقوى وأسلم" [2] والنسيان في الآية كناية عن النسخ؛ لأن ما لم ينسخ تلاوته من شأنه أن يتلى.

قال تعالى:{إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ } استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي

---

(١) الرازي:(/١٤١)

(٢) حاشية الشهاب: (٩/٤٧٠).

لاتنسى مما تقرؤه شيئا من الاشياء، إلا ما شاء الله أن تنساه ، قال الفراء:"وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمداً -صلى الله عليه وسلم- شيئاً"[1] ، وهو مفرغ من الفعل تنسى وما موصولة بمعنى الذي هي المستثنى، والتقدير: إلا الذي شاء الله أن تنساه.

وحذف المفعول من الفعل "شاء" كما الشائع عن العرب ، فلا يذكرون مفعول المشيئة إلا إذا تضمن أمراً عجيبا نادرا.والفخر الرازي قد فصل القول في هذا الاستثناء فبين أن قوله:" قوله: {إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ } فيه احتمالان أحدهما : أن يقال : هذا الاستثناء غير حاصل في الحقيقة وأنه عليه السلام لم ينس بعد ذلك شيئا، وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله : {إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ }: التبرك بذكر هذه الكلمة، أو يكون الغرض بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير محمد - صلى الله عليه وسلم- ناسيا لقدر على ذلك، وفائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته أو يكون الغرض نفي النسيان رأسا، ثانيهما: أن قوله: {إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ } استثناء في الحقيقة، وعلى هذا التقدير تحتمل الآية وجوها أحدها :ما قاله الزجاج : إلا ما شاء الله أن ينسى، فإنه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك ، فلا ينسى نسيانا كليا دائما، وروى أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة.

ثانيها: قال مقاتل: إلا ما شاء الله أن ينسيه، ويكون المراد من الإنشاء ههنا نسخة.

---

(١) فتح القدير الشوكاني: (٥/٦٠٨).

وثالثها : أن يكون معنى قوله : {إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ} القلة والندرة"[1].

ونسيان النبي -صلى الله عليه وسلم- ممتنع فيما أمر بتبليغه إذ هو معصوم فإذا بلغه ووعى عنه فالنسيان جائز بعد ذلك[2]، والله ينسخ من الشريعة وينسى الرسول ما يشاء بحسب المصالح تخفيفا ورفقا بهذه الأمة.

وتأمل معي جمال الالتفات من التكلم في قوله: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ} إلى الغيبة في قوله: {إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ}، فإنه أحسن تطرية لنشاط السامع، وليتقرر عنده ما يلتفت إليه من النبي -صلى الله عليه وسلم- لا ينسى إلا ما شاء الله.

قال تعالى:{إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ}، أجمع المفسرون على أن الجملة السابقة تعليل لما قبلها، أي يعلم ما ظهر وما بطن ،والإعلان والإسرار، والجمع بين الجهر وما يخفى كان على سبيل الطباق، والمناسبة في هذا الجمع أن ما يقرؤه الرسول -صلى الله عليه وسلم- من الجهر فالله يعلمه، وما ينساه فيسقطه من القرآن هو من قبيل الخفي، فيعلم الله أنه اختفى في حافظته حين القراءة فلم يبرز إلى النطق، وهذه الجملة معترضة، توحي بأنه تعالى محيط العلم يكون منه وحده الإقراء والإنشاء، لذا كانت الجملة مؤكدة لأجل إنكار أهل القصور في النظر الذين ينكرون قدرته على ذلك، وإيثار التعبير بضمير الغيبة "الهاء" في {إنه} إشارة إلى تعاليه سبحانه في العظمة إلى حيث تنقطع أماني الخلق عن إدراكه بما كثر من أفعاله[3].

---

(١) الفخر الرازي:(١٤٢/٣١).

(٢) المحرر الوجيز:(٢٨٢/١٦).

(٣) نظم الدرر:(٣٩٧/٨).

كذلك في الآية التفات من التكلم في قوله:"سنقرئك" إلى غيبة في قوله :{إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ}.

وتقديم الجهر لأن هذا مقامه وصيغة المضارع في قوله:{يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ} ليوحي بالتجدد والاستمرار في الإقراء والقراءة وغيرهما، وإيثار المضارع في قوله:{وَمَا يَخْفَىٰ}، لإفادة التجدد والاستمرار كذلك، أي يتجدد خفاؤه من القراءة وغيرها على أي حالة كان الإخفاء.

قال تعالى:{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ} ،هذه الجملة معطوفة على جملة :{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ}، وهذا العطف من عطف الأعم على الأخص في المآل وان كان مفهوم الجملة السابقة مغايرا لمفهوم التيسير لأن مفهومها الحفظ والصيانة ومفهوم المعطوفة تيسير الخير له، ونون العظمة في الفعل"ونيسرك" ليستدل بعظمة المعطى على نعمة المعطي، وكيف لا؟ وقد كان -عليه الصلاة والسلام- صبيا لا أب له ولا أم نشأ في قوم جهال؟ ثم إنه تعالى جعله في أفعاله وأقواله قدوة للعالمين وهاديا للخلائق أجمعين، إلى شريعة لم يهد إلى مثلها أحد من الأولين فكان بذلك سيد المرسلين وخاتم النبيين وأيّ عطاء أجل من هذا وأعظم من هذا؟[1]

وصيغة المضارع في الفعل {وَنُيَسِّرُكَ} أوحت بالتجدد والحدوث، وكأن هذا التيسير من الله تعالى لنبيه متجدد وحادث حالا بعد حال، أي نجعلك أنت مهيأ مسهلاً موفقاً لليسرى.

والتيسير: هو جعل العمل يسيراً على عامله.

---

(١) حاشية زادة:(٥٧٦/٨).

ومفعول فعل التيسير هو الشيء الذي يجعل يسيراً، أي غير صعب ويذكر مع المفعول الشيء المجعول الفعل يسيرا لأجله مجروراً باللام كقوله تعالى: {وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي} (طه:٢٦)[١].

و"اليسرى" مؤنث الأيسر، وصيغته فعلى تدل على قوة الوصف لأنها مؤنث أفعل، واليسرى صفة لموصوف محذوف، وتأنيث الصفة يوحي بأن الموصوف مؤنث أيضاً، وإذا تأملنا في سياق الآيات أمكننا أن نحدد هذا المحذوف "الموصوف المقدر" وهو الشريعة لأن الخطاب في الآية للنبي -صلى الله عليه وسلم- الذي من أهم شؤونه هو ما أرسل به وهو الشريعة ، فيكون التقدير: نوفقك للشريعة اليسرى، وهي الحنيفية السمحة السهلة.

والفخر الرازي يذكر لطيفة في هذه الآية فيقول:" لسائل أن يسأل فيقول: العبارة المعتادة أن يقال: جعل الفعل الفلاني ميسرا لفلان، ولا يقال: جعل فلان ميسرا للفعل الفلاني فما الفائدة فيه؟ ههنا الجواب: أن هذه العبارة كما أنها اختيار القرآن في هذا الموضع، وفي سورة الليل أيضا ، فكذا هي اختيار الرسول في قوله -عليه السلام-:«اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وفيه لطيفة علمية ، وذلك لأن هذا الفعل في نفسه ماهية ممكنة قابلة للوجود والعدم على السوية ، فالفاعل يصير ميسرا للفعل ، لا أن الفعل يصير ميسرا للفاعل ، فسبحان من له تحت كل كلمة حكمة خفية وسر عجيب يبهر العقول"[٢]

ومعنى اللام في قوله:{لِلْيُسْرَى } العلة أي لأجل اليسرى ولقبولها.

ويجوز أن يجعل الكلام جاريا على خلاف مقتضى الظاهر بسلوك أسلوب القلب، وان الأصل : ونيسر لك اليسرى، أي نجعلها سهلة لك فلا تشق

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٨٢/٣٠).

(٢) الفخر الرازي١٢١/١٠.

عليك، والسر في هذا العدول عن مقتضى الظاهر إلى ما جاء النظم عليه أن فيه تنزيل الشيء الميسر منزلة الميسر له والعكس للمبالغة في ثبوت الفعل للمفعول على طريقة القلب المقبول كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض، ومعنى الآية على ذلك: وعد الله إياه بأنه يسره لتلقي أعباء الرسالة فلا تشق عليه ولا تحرجه تطمينا له إذ كان في أول الأمر إرساله مشفقا أن لا يفي بواجباتها أي أن الله جعله قابلا لتلقي الكمالات وعظائم تدبير الأمة التي من شانها أن تشق على القائمين بأمثالها، ومن آثار هذا التيسير ما ورد في الحديث:"أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما"،وقوله –صلى الله عليه وسلم– لأصحابه:"إنما بعثتم ميسرين لا معسرين".

وفي قوله:"{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ } التفات من الغيبة في قوله:{إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ } إلى التكلم في قوله:{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ }.

المبحث الثالث: الدعوة وأحوال الناس معها

قال تعالى:{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ}(الأعلى: ٩)

بعد أن بعث الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- تكفل له ما أزال خوفه من أعباء الرسالة، فدفع عنه نسيان ما يوحي إليه إلا ما كان إنساؤه مرادا لله تعالى وهيأه لذلك ويسره عليه، أعقب ذلك بان أمره بالتذكير أي التبليغ وبالاستمرار عليه، إرهافا لعزمه، وشحذاً لنشاطه ليكون إقباله على التذكير كبيراً، فان امتثال الأمر إذا عاضده إقبال النفس على فعل المأمور به كان فيه مسرة للمأمور ، فجمع بين أداء الواجب وإرضاء الخاطر" [(١)].

والفاء للتفريع على ما تقدم، أي تفريع النتيجة على المقدمات السابقة والأمر في قوله:"فذكر" خرج عن معناه الحقيقة إلى معنى آخر وهو الدوام والاستمرار ،وفي هذا شحذ لهمة النبي -صلى الله عليه وسلم- ومفعول الفعل "ذكر" محذوف مرادا به العموم أو التعميم أي أن الأمر بالتذكير لم يختص به أحد دون أحدن ولم يقتصر على المطيعين فقط، وإنما هو عام للناس كافة.وجملة الشرط "إن نفعت الذكرى" جملة معترضة بين جملة "فذكر" المعللة وبين "سيذكر من يخشى" وهي العلة وليست متعلقة بجملة فذكر، ولا مقيدة لمضمونها إذ ليس المعنى: فذكر إذا كان للذكرى نفع، بل المراد فذكر الناس كافة إن كانت الذكرى تنفع جميعهم، فالشرط مستعمل في التشكيك لأن أصل الشرط بـ"إن" أن يكون غير مقطوع بوقوعه، فالتبليغ والتذكير عام لجميع الناس، وان كان قد سبق في علم الله تعالى الأزلي من يوفق إلى قبول الهدى ومن لم يوفق إلا أن الله تعالى استأثر بعلمه ، فأبو جهل مدعو للإيمان، والله يعلم أنه لا يؤمن ، ومع هذا لم يخص الله بالدعوة من يرجى منهم الإيمان دون غيره.

---

(١) التحرير والتنوير: (٣٠/٢٨٤ بتصرف).

وجملة الشرط المعترضة {إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ } إن نفعت الذكرى" أوحت بالتوبيخ لقريش أي إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، وهذا نحو قول الشاعر:

لقد ناديت لو ناديت حيا *** ولكن لا حياة لمن تنادي [1]

وقال الفراء والنحاس والزهراوي والجرجاني معنى جملة الشرط: وإن لم ينفع فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني" [2].

وتأمل المجاز العقلي في قوله:{إن نفعت الذكرى} بعلاقة السببية حيث أسند النفع إلى الذكرى وهي سبب فيه، أما الفاعل الحقيقي للنفع هو الله تعالى، وسرّه تأكيد أمر الذكرى في حياة المؤمنين.

وإيثار إن الشرطية التي تفيد الشك لأن الإنسان لعدم علمه الغيب لا يقطع بعدم النفع.

قال تعالى:{سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ } (الأعلى: ١٠)

هذا من قبيل الاستئناف البياني الناشئ عن فعل الأمر "فذكر"وما لحقه من الاعتراض {إن نفعت الذكرى} فهذه الجملة أوحت بأن التذكير لا ينتفع به جميع المذكرين.

والسين في قوله:{سيذكر} يحتمل أن تكون بمعنى سوف يذكر، وسوف من الله واجب، كقوله:{سنقرؤك فلا تنسى}، ويحتمل أن يكون المعنى أن من خشي الله فانه يتذكر وان كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر، فهو بعد طول المدة يذكر [3].

---

(١) المحرر الوجيز: (٢٨٢/١٦).

(٢) البحر المحيط: (٦٤٦/٨).

(٣) التفسير الكبير الرازي: (١٤٥/٣١) .

والفعل "يذكر" مطاوع للفعل ذكره.

"من" اسم موصول أريد به الجنس لا فرد معين أي سيتذكر الذين يخشون ،ونزل الفعل "يخشى" الذي هو في الأصل متعدى منزلة الفعل اللازم فلم يذكر معه مفعول ، أي يتذكر من الخشية، وتأمل سر اختيار الله عز وجل لمادة هذا الفعل دون غيرها، نحو "يرجو" فالتذكر حاصل معه أيضاً، بين الماوردي السر في ذلك فقال:"إن تذكر الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي، فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء"[1].

والخشية هي الخوف أي لا يتذكر بذكراك إلا من يخاف، فإن الخوف حامل على النظر في الذي ينجيه مما يخافه، فإذا نظر فأداه النظر والتذكر إلى الحق،وهؤلاء هم العلماء والمؤمنون كل على قدر ما وفق له.

قال تعالى:{وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى} (الأعلى: ١١)

أي يتجنب الذكرى ويبعد عنها الشقي، الذي سبقت له شقاوته في علم الله تعالى ،وقيل: الشقي: الكافر ؛ لأنه أشقى من الفاسق ،وصيغة التفضيل أوحت بالمبالغة في الشقاوة لأنه الذي يكفر بالرسول هو أشقى الكفار، كما أن المؤمن به وبما جاء به هو أفضل ممن آمن برسول قبله، والتعريف في "الأشقى"بلام الجنس أي الأشقون ولم تعين واحدا بعينه، وإنما دلت على الجنس حتى يشمل جميع المشركين ، ومن جعل اللام في الأشقى للعهد فقال:إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة. ومقابلة {من يخشى}بـ{الأشقى} على سبيل الطباق الذي يوحي بأن الأشقى من شأنه ألا يخشى، فلا يطلب لنفسه تخلصاً من شقائه.

قال تعالى:{ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ} (الأعلى: ١٢) الذي: اسم موصول مبني في محل صفة للأشقى، هذه الآية نزلت في أول ما نزل من

(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبي: (١٠/٣) .

القرآن فكأنه قد اكتنفها بعض الإبهام ، فاحتاج الموصوف {الأشقى} إلى البيان فأتبع بهذا الوصف {الذي يصلى النار الكبرى}، واختيار الصفة اسم موصول "الذي" يوحي بأن المراد جملة الصلة.

و{يصلى} معناه: يباشر مباشرة الغموس بقلبه وقالبه مقاسيا النار الكبرى. وصيغة المضارع فيه توحي بالتجدد والحدوث حالاً بعد حال.

و{النار الكبرى}: قال الحسن: النار الكيرى، نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا، وقال بعض المفسرين: إن نار جميع الآخرة وإن كانت شديدة فهي تتفاضل ففيها شيء أكبر من شيء، وقال الفراء: الكبرى هي السفلى، من أطباق النار، والكبرى صيغة التفضيل، لأنه تأنيث الأفضل، فيقضى مفصلا عليه، وهو نار الدنيا على رأي من قال إن المراد بالنار الكبرى نار الآخرة،وأما من قال أن المراد بالنار الكبرى هي السفلى، من طباق النار، يكون المفضل عليه ما في الدركات التي فوقها، فإن في جهنم نيرانا ودركات متفاونة.

والآية من الاحتباك : ذكر الثمرة في الأول وهي الخشية دليلا على حذف ضدها من الثاني ، وهي القسوة الناشئة عَلى الحكم بالشقاوة ، وذكر الأصل والسبب في الثاني وهو الشقاوة دليلا على حذف ضده في الأول وهو السعادة ، فالإسعاد سبب والخشية ثمرة ، والإشقاء سبب، والقساوة ثمرة ومسبب ، وكذا ما تبعه من النار وما نشأ عليها ، وسر ذلك أنه ذكر مبدأ السعادة أولا حثا عليه، ومآل الشقاوة ثانيا تحذيرا منه"[1] .

قال الملوي: لا شك أن القران العظيم على أحسن ما يكون من البراعة في التركيب وبداعة الترتيب وكثرة العلوم مع الاختصار وعدم التكرار، فيكتفي في موضع بالثمرة، بلا سبب، وفي آخر بالسبب بلا ثمرة، لدلالة الأول على الثاني، والثاني على الأول.

---

(١) نظم الدرر:(٣٩٩/٨).

قال تعالى:{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ}(الأعلى:١٣). حياة هنيئة.وتأمل معي حرف العطف "ثم" وإيثار التعبير به فهي في أصل دلالتها مقتضية للتراخي الذي يوحي بتفاوت مراتب الشدة؛ لأن التردد بين الحياة والموت أشد وأقطع من الصلي بالنار فمعنى "لا يموت": لا يزول عنه الإحساس فان الموت فقد هذا الإحساس مع ما في هذه الحالة من الأعجوبة، وهي مما يؤكد اعتبار تراخي الرتبة في هذا التنكيل، فمراتب هذه الشدة بين الموت والحياة لا يعلم علوها في شدة الصلي إلا الله تعالى، فقال:{ثم لا يموت فيها ولا يحيى}، أي لا يتجدد له في هذه النار موت وإن طال المدى.

أما قوله:{ولا يحيى} فهو احتراس لدفع توهم أن يراد بنفي الموت عنهم أنهم استراحوا من العذاب لما هو متعارف من أن الاحتراق يهلك المحرق، فإذا قيل: {لا يموت} توهم المنذرون أن ذلك الاحتراق لا يبلغ مبلغ الإهلاك فيبقى المحرق حيا ، فيظن أنه إحراق هين فيكون مسلاة للمهددين، فلدفع ذلك عطف عليه {لا يحيى}، أي حياة خالصة، من الآلام والقرينة على الوصف المذكور مقابلة {ولا يحيى}، يقوله:{يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها}[1].

ويجوز أن يكون في قوله تعالى:{ولا يحيى}، كناية عن نفي الخلاص، على اعتبار أن لازم قوله:{يصلى النار الكبرى} الهلاك ، ولازم الحياة عدم الإهلاك، أو الخلاص والنجاة من العذاب وإنما يكون بالعمل في دار يموت فيها العامل ويحيا،والآخرة ليست كذلك.

وتأمل معي الطباق في قوله:{لا يموت ولا يحيى}، فقد جمع بين الضدين ، وتأمل معي مراعاة القرآن الكريم لحسن الفاصلة في قوله:{ولا يحيى}.

قال تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ}(الأعلى: ١٤).

---

(١) التحرير والتنوير: (٣٠/٢٨٦).

قال الطاهر بن عاشور:"هذا استئناف بياني لأن ذكر:{من يخشى}، وذكر:{الأشقى} يثير استشراف السامع لمعرفة أثر ذلك فابتدئ بوصف أثر الشقاوة فوصف { الأشقى} بأنه {يصلى النار الكبرى} وأخر ذكر ثواب الأتقى تقديما للأهم في الغرض وهو بيان جزاء الأشقى الذي يتجنب الذكرى وبقي السامع ينتظر أن يعلم جزاء من يخشى ويتذكر . فلما وفي حق الموعظة والترهيب استؤنف الكلام لبيان المثوبة والترغيب، فقال:{قد أفلح من تزكى}.

ومن يتأمل في نظم هذه الآية يجد أنها قد جمعت كل أنواع الخير المؤكد لمن تذكر وخشي الله تعالى، لأن "قد" حرف تحقيق يفيد التأكيد والتحقيق والفعل الداخلة عليه هو الفلاح، أي تحقيق الفلاح لمن تذكر وخشي الذي هو عين من تزكى، والفلاح هو نجاح المرء فيما يطمع إليه، وصيغة الماضي أحوط لتحقق هذا الأمر المبتغى، أما الفعل {تزكى}أي تطهر من الكفر والمعصية أو تكثر من التقوى، من الزكاة، أو تطهر للصلاة أو أدى الزكاة كل هذه أقوال للعلماء في تفصيل معنى{تزكى}.ومادة التفعل تدل على كل ذلك لأنها توحي بالتكلف وبذل الجهد، فالذي تزكى بذل استطاعته في تطهير نفسه، وتزكيتها بكل الأعمال السابقة.

وتأمل تقديم هذا الفعل {تزكى} على ذكر الله والصلاة، لأنه أجل العمل.

قال تعالى:{وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ } (الأعلى: ١٥)

الفعل :{ذكر}يجوز أن يكون من الذكر اللساني الذي هو بكسر الذال فيكون كلمة "اسم ربه" مراداً بها ذكر أسم الله بالتعظيم مثل قوله:{لا إله إلا الله}، وقول: {الله أكبر، وسبحان الله}، ونحو ذلك على ما تقدم في قوله:{سبح اسم ربك الأعلى}، ويجوز أن يكون من الذُكر وهو حضور الشيء في النفس الذاكرة والمفكرة فتكون كلمة "اسم" مقحمة لتدل على شأن الله وصفات عظمته فإن أسماء الله أوصاف كمال .

والفاء في قوله:{فصل} أوحت بالترتيب الحاصل بين{تزكى}، {وذكر اسم ربه فصلى}، وقال قوم من المفسرين فيه:{قد أفلح من تزكى} يعني من تصدق، قبل مروره إلى العيد و{ذكر اسم ربه فصلى} يعني ثم صلى صلاة العيد بعد ذلك مع الإمام، ولكنى البقاعي في نظم الدرر بين أن المقصود الصلاة: الشريعة لأنها أعظم الذكر، فهي أعظم عبادات البدن كما أن الزكاة أعظم عبادات المال، ومن فعل ذلك استراح من داء الإعجاب وما يتبعه من النقائص الموجبة لسوء الانقلاب، وكان متخلقا بما ذكر من أخلاق الله في أول السورة من التخلي عن النقائص بالتزكية ،والتحلي بالكمالات بالذكر والصلاة لأنه لعظمته لا يتأهل لذكره إلا من واظب على ذكر اسمه، {فلا يشقى}، {ولا يصلى النار الكبرى} بوعد لا خلف فيه، فالآية من الاحتباك ذكر أولا الصلي دليلا على حذف ضده ثانيا، وثانيا التزكية دليلا على حذف ضدها أولا"[1].

قال تعالى:{بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا} (الأعلى: ١٦)

بل تفيد الإضراب : أي انصراف القول أو الحكم إلى ما يأتي بعد "بل" ، وهي هنا عاطفة جملة{تؤثرون الحياة الدنيا} على ما سبق، فيجوز فيها أن تكون لمجرد الانتقال من ذكر المنتفعين بالذكرى والمتجنبين لها، إلى ذكر سبب إعراض المتجنبين وهم الأشقون بأن السبب إيثارهم الحياة الدنيا وذلك على قراءة أبي عمرو {بل يؤثرون}.

أما على قراءة الجمهور {بل تؤثرون} فيكون الإضراب عن حكاية أحوال الفريقين بالانتقال إلى توبيخ أحد الفريقين وهو الفريق الأشقى، وعلى هذا يكون في الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب، مبالغة في الذم، فالذم إذا كان بالمواجهة المفهومة بالخطاب يكون أبلغ من الذم في الغيبة، وفي هذا الالتفات أيضاً تجديد لنشاط السامع لكي لا تنقضي السورة كلها في الإخبار عنهم بطريق الغيبة.

---

(١) نظم الدرر:(٨/٤٠١).

قال تعالى:{وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ} (الأعلى: ١٧)

معطوفة على جملة {تؤثرون}، وقيل: {والآخرة خير وأبقى}، حال من فاعل:{تؤثرون}، وتفيد حينئذ تأكيد التوبيخ والذم، الذي أفاده الالتفات أي أنكم تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، والحال أن الآخرة خير في نفسها، لما أن نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللذة خالص من كل شائبة"(١)

والآية إشارة إلى الترغيب في طلب الآخرة وما فيها من الترويح والثواب الجزيل الذي لا انقطاع له ، فهو أطول بقاء أوحى بذلك اسم التفضيل"أبقى"، والآية:"بل تؤثرون...." من الاحتباك، ذكر الإيثار والدنو أولا يدل على الترك والعلو ثانياً، وذكر الخير والبقاء ثانيا يدل على ضدهما أولا، وسر ذلك أنه ما يؤثر الدنيء إلا دنيء فذكر أولا لأنه أشد من التنفيذ وذكر الخير والبقاء ثانيا لأنه أشد في الترغيب(٢)

قال تعالى:{إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ } (الأعلى: ١٨-١٩)

هذه الآية تذييل للكلام السابق وتنويه به، بأنه من الكلام النافع الثابت في كتب إبراهيم وموسى عليهما السلام، وكان القصد من هذا التذييل الإبلاغ للمشركين الذين كانوا يعرفون رسالة إبراهيم ورسالة موسى، ولما كان الخبر مساق لمن أنكر كان من مقتضاه أن يؤكده الله تعالى بإن واللام في الخبر واسمية الجملة حتى يزيل هذا التوكيد المتكرر ما علق في نفوس هؤلاء من إنكار.

وذهب العلماء في تفسير المشار إليه في قوله تعالى:{إن هذا...}، إلى أنه القرآن الكريم كله، قال الضحاك: أراد القرآن وروى أن القرآن انتسخ من

(١) روح المعاني: (٣٢٣/١٥).

(٢) نظم الدرر: (٤٠٢/٨).

الصحف الأولى.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : الإشارة إلى معاني السورة، وقال ابن زيد: الإشارة إلى هذين الخبرين: إفلاح من تزكى، وإيثار الناس للدنيا مع فضل الآخرة عليها، وهذا هو الأرجح لقرب المشار إليه بـ"هذا".[1] ويرجح ذلك أيضا ما روي عن أبي ذر قال: قلت : يا رسول الله هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: نعم، {قد أفلح من تزكى} و{صحف إبراهيم وموسى}: هي الكتب المنزلة عليهما، وصحف جمع صحيفة على غير قياس، لأن قياس جمعه على صحائف، ومع هذا فهو الأفصح، ووجه الجمع في صحف أن إبراهيم كانت له صحف وأن موسى كانت له صحف كثيرة.

والنظم القرآني أجمل أولا في قوله تعالى:{لفي الصحف الأولى} ، ثم فصل ثانيا في قوله:{صحف إبراهيم وموسى}، والسر في ذلك مزيد التأكيد والتقرير لهذا الخبر.

وقدم الله تعالى صحف إبراهيم لأن صحفه أقرب إلى الوعظ، وختم بصحف موسى لأن الغالب على كتابه الأحكام والمواعظ فيه قليلة.[2]

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية: (١٥/٤١٥).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي: (٨/٤٠١). ط دار الكتب العلمية .

الفصل الثاني

خصائص النظم

في هذا الفصل سنذكر الأبواب البلاغية التي تصرف فيها النظم في هذه السورة الكريمة مستقرئين خصائص كل أبواب:

١- أضرب الخبر:

البلاغيون يتحدثون في هذا الضرب عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال عند المخاطبين، فإذا كان المخاطب خالي الذهن من مضمون الكلام يلقى إليه الخبر عاريا من المؤكدات وإذا كان المخاطب مترددا أو شاكا يلقى إليه الخبر مؤكدا بمؤكد واحد استحسانا، أما إذا كان المخاطب منكرا لمضمون الخبر الذي يلقى إليه فإنه يؤكد له هذا الخبر بأكثر من مؤكد، كلما تصاعدت مراتب الإنكار تصاعدت مراتب التوكيد حتى يزيل هذا التوكيد المتعدد ما علق بذهن المخاطب من إنكار ، قال عبد القاهر:" فإذا كان الخبرُ بأمرٍ ليس للمخاطب ظنٌّ في خِلافه البتَّةَ ولا يكونُ قد عَقَد في نفسِه أن الذي تزعمُ أنَّه كائنٌ غيرُ كائنٍ وأنَّ الذي تزعمُ أنه لم يكنْ كائنٌ فأنتَ لا تحتاجُ هناك إلى " إنّ " وإنما تحتاجُ إليها إذا كان له ظنٌّ في الخلافِ وعَقْدُ قلبٍ على نفيِ ما تُثْبِتُ أو إثباتِ ما تَنْفي".(١)

والبلاغيون يطلقون على الضرب الأول: ابتدائي، والثاني: طلبي، والثالث: إنكاري.

وهذه الأضرب الثلاثة قد حوتها سورة الأعلى.

فالضرب الأول: هو الابتدائي الذي يأتي بدون مؤكدات ،ويلقى إلى خالي الذهن من الحكم أو التردد فيه جاء في الأخبار الآتية:{الذي خلق فسوى}{والذي قدر فهدى}، {والذي أخرج المرعى}، {فجعله غثا أحوى}. {ونيسرك لليسرى}

---

(١) دلائل الإعجاز :(ص:٣٢٥)..

{ويتجنبها الأشقى} {الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى}، {بل تؤثرون الحياة الدنيا} {والآخرة خير وأبقى}.

أما الضرب الثاني: الطلبي: الذي يؤكد بمؤكد استحسانا ،ويلقى لمخاطب يتردد في الحكم المراد إفادته إياه، فيؤكد له الخبر تمكينا للحكم في ذهنه سواء استوى لديه طرفا الإثبات والنفي أو كان لأحدهما أرجحية على الآخر، قد جاء هذا النوع من الإخبار في مواضع وهي في قوله تعالى:{سنقرؤك فلا تنسى}، ويجوز أن يكون التوكيد هنا لتقوية مضمون الكلام وتقريره، وقوله:{إلا ما شاء الله} قصر، وغرضه تقوية المعنى، وقوله:{إنه يعلم الجهر وما يخفى}،حيث أوكد هذا الخبر بمؤكدين، جملية الاسمية و"إن" وقوله:{سيذكر من يخشى}، التوكيد هنا بالسين وغرضه تأكيد المعنى وتقويته.

وقوله:{قد أفلح من تزكى} والتوكيد هنا بقد، ويفيد تقوية المعنى وتأكيد أيضاً.

الضرب الثالث: الإنكاري: الذي يؤيد بأكثر من مؤكد تبعا لمراتب الإنكار فيه، في قوله تعالى:{إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى}حيث كثرت المؤكدات وتعددت من اسمية الجملة، وإن، واللام في الخبر، والإيضاح بعد الإجمال.

٢- الإسناد الحقيقي والمجازي:

يقول الخطيب القزويني:"الإسناد منه حقيقة عقلية، ومنه مجاز عقلي"[(١)]

عرف العلماء الإسناد الحقيقي بأنه: إسناد الفعل أو ما في معنى الفعل كالمصدر واسم الفاعل ونحوهما مما هو في معنى الفعل إلى ما هو له في الحقيقة، ونحن إذا تأملنا الإسناد في هذه السورة الكريمة وجدناه كله ينصرف إلى هذا النوع وهو الإسناد الحقيقي إلا في اسنادين اثنين وهما قوله تعالى:{إن نفعت

---

(١).الإيضاح مع البغية: (٤١).

الذكرى}، فالله تعالى أسند التسبيح للنبي -صلى الله عليه وسلم- على سبيل الحقيقة وأسند الخلق والتسوية والتقدير والهداية وإخراج المرعى وجعله غثاء أحوى ، وإقراء النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلمه الجهر والخفاء وتيسير النبي -صلى الله عليه وسلم- لليسرى لذاته- سبحانه وتعالى، على سبيل الإسناد الحقيقي، كما أسند الله تعالى التذكر لمن يخشى، وأسند تجنب التذكر للأشقى، وأسند الاصطلاء بالنار للأشقى، وأسند عدم الموت والحياة للأشقى أيضا على ذلك سبيل الإسناد الحقيقي، وأسند الفلاح لمن زكى نفسه وذكر اسم ربه وصلى على سبيل الإسناد الحقيقي، وأسند إيثار الحياة الدنيا على الآخرة للأشقين على سبيل الحقيقة العقلية.

أما الإسناد المجازي وهو ما أطلق عليه عبد القاهر في الأسرار مجازا عقليا، لأن المتصرف في الإسناد هو العقل[1] ولكنه عاد فسماه في الدلائل : مجازا حكميا، لأن المجاز ليس في ذات الكلمة ، وإنما هو في حكم جرى عليها[2] وجاء الإسناد الأول على سبيل المجاز العقلي بعلاقة السببية في قوله تعالى:{فلا تنسى} حيث أسند الله عز وجل النسيان إلى الرسول وهو في الحقيقة كما قال المفسرون نهى عن سببه وهو الغفلة عن دراسته وتكريره، فالعلاقة هنا السببية، لان الذي يفعل النسيان بالإنسان في الحقيقة هو الله تعالى.

وجا المجاز العقلي بعلاقة السببية في قوله تعالى:{إن نفعت الذكرى} حيث أسند النفع إلى الذكرى وهي في الحقيقة ليست فاعلا للنفع وإنما هي سبب فقط بينما الفاعل الحقيقي هو الله تعالى الذي ينفع بسببها، فسبب الفعل ارتفع إلى مرتبة الفاعلية، وفي هذا مبالغة في أهمية الذكرى ومزيد نفعها وهذا نظير قوله

---

(1) أسرار البلاغة:(ص: ٢٩٧، ٢٩٨).

(2) دلائل الإعجاز: (١٩٣) والنظم البلاغي بين عبد القاهر والمتأخرين د. حسين إسماعيل عبد الرزاق(ص:١٤٤).

تعالى:{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا }(الأنفال: ٢) أسند زيادة الإيمان إلى الآيات لأنها سبب فيها.

٣- دلالات الجملة الخبرية بحسب أحوالها في سورة الأعلى:

أولا- دلالات الجميلة الخبرية الاسمية في السورة الكريمة ثلاث جمل اسمية هي قوله تعالى:{إنه يعلم الجهر وما يخفى}، الثانية في قوله تعالى:{والآخرة خير وأبقى}، والثالثة في قوله تعالى:{إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى}.

والفرق بين إثبات المعاني عن طريق الجمل الاسمية وبين إثباتها عن طريق الجمل الفعلية فرق دقيق، تمس الحاجة في علم البلاغة إلى معرفته كما جزم بذلك علماء البلاغة، وهذا الفرق هو انك إذا عبرت عن المعاني بطريق الاسم كنت قد أردت الدلالة على ثبوت هذه المعاني من غير إرادة إفادتها التجدد، أما إذا عبرت عن المعاني بطريق الفعل كنت قد أردت الدلالة على حدوث هذه المعاني وتجددها، فالجملة الاسمية الأولى:{إنه يعلم الجهر وما يخفى}، أفادت ثبوت علم الجهر والخفاء لله تعالى فهو واقع وثابت، ثم كان الإخبار عن هذه الجملة الاسمية بالمضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار. أما الجملة الثانية :{والآخرة خير وأبقى}، فهي اسمية وخبرها ليس جملة فعلية تفيد بأصل وضعها الحكم بإثبات المسند "الخيرية والبقاء"، للمسند إليه، الآخرة دون إفادة حدوث ولا استمرار ولا تجدد، فالأصل فيها التحدث عن الواقع عند إنشاء الجملة لكن إفادة معنى الدوام والاستمرار أتى من قرينة المدح، فالمقصود هو مدح الآخرة وتفضيلها على الدنيا، وهذا لا يتأتى إلا على معنى الدوام والاستمرار، أما الجملة الثالثة :{إن هذا لفي الصحف الأولى}، فقد أفادت نسبة المسند إلى المسند إليه، دون إفادة حدوث ولا استمرار ولا تجدد، فهي تتحدث عن الواقع عند إنشاء الجملة.

ثانياً: دلالات الجملة الفعلية المشتملة على فعل ماضي:

لا تفيد الجملة الخبرية الاثباتية المشتملة على فعل ماض أكثر من إثبات حدوث النسبة الحكمية في الزمن الماضي، فلا تدل على الاستمرار إلا بمساعدة من القرائن اللفظية ، أو العقلية[1] فإذا تأملنا دلالات الجملة الخبرية المشتملة على فعل ماض في سورة الأعلى وجدنا أنها تدل على حدوث النسبة أي نسبة المسند إلى المسند إليه في الزمن الماضي كما هو الأصل في الوضع، وتدل على الاستمرار أيضا بمعونة القرائن وهذه الجملة هي:{خلق..}، فيدل على حدوث الخلق في الماضي وإسناده إلى الفاعل الذي لا يقدر عليه غيره وهو الله تعالى، كما أن بمساعدة القرينة العقلية يدل على استمرار الخلق مسندا إلى الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره، وكذلك الحال في دلالة الجمل الآتية {سوى} {قدر}،{ هدى} {أخرج}، {جعله}، {شاء الله} {نفعت الذكرى}، {أفلح}، {تزكى}، {ذكر اسم ربه}، {فصلى}.

فكل هذه الجمل تدل على حدوث نسبة المسند إلى المسند إليه في الزمن الماضي، وتفيد الاستمرار أيضا بمعونة القرائن.

ثالثاً: دلالات الجملة الخبرية المشتملة على الفعل المضارع.

يرى علماء البلاغة أن الجملة الخبرية المشتملة على فعل مضارع غير مقلوب الزمن إلى الماضي وغير متعين بالأدوات للحال أو للاستقبال تفيد تجدد حدوث نسبة المسند إلى المسند إليه بمقتضى دلالة الفعل المضارع مع إفادة تتابع تجدد الحدوث. وبالتأمل في دلالات الجملة الخبرية المشتملة على فعل مضارع في سورة الأعلى وجدنا بعضها متعين للدلالة على الاستقبال لدخول حرف السين عليه، وبعضها غير متعين فهو على الحال والاستقبال معا، فالجمل التي تدل على الاستقبال، في قوله تعالى:{سنقرئك}وقوله:{سيذكر}، والجمل التي تدل على الحال

---

(1) البلاغية العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: (٢١٤/١)ط دار القلم.

والاستقبال معا في قوله: {فلا تنسى}، {يعلم الجهر وما يخفى}، {من يخشى} {يتجنبها}، {يصلي}، {لا يموت}، {لا يحيى}، {تؤثرون}.

٤- الأساليب الإنشائية:

من الأساليب الإنشائية التي وقعت في هذه السورة الكريمة أسلوب الأمر بصيغة فعل الأمر في موضعين:

الأول: {سبح..}، فهذا تكليف إلزامي بوجوب التسبيح على جهة الاستمرار تنزيها لله تعالى عن كل عيب أو نقص، يلحقه به المشركون، ويجوز القول بخروج الأمر هنا عن معناه الحقيقي إلى الإرشاد إلى معرفة أن الله منزه عن النقائض.

الثاني: وردت في قوله تعالى:{فذكر إن نفعت الذكرى}، فهذا تكليف إلزامي أيضا للرسول -صلى الله عليه وسلم- للقيام بهمته المستمرة التي كلفه الله بها، وهي التذكير بآيات الله تعالى، فهذه وظيفته قال تعالى:{فذكر إنما أنت مذكر}،(الغاشية: ٢١).

ومن الأساليب الإنشائية أسلوب النهي وورد في موضع واحد على رأي بعض المفسرين في قوله تعالى:{فلا تنسى}، بينما يجعل جمهور المفسرين الآية من قبيل نفي النسيان، وحجتهم في ذلك أن أصل النهي أن يكون فيما هو اختياري أما النسيان وعدمه فلا دخل للإنسان فيه، فصيغة النهي تدل على التكليف الإلزامي بالترك وعدم الفعل،وقد حكم الجمهور على رأي من ذهب من المفسرين إلى أن "لا" ناهية بالتكلف على توجيهه ، فهم تكلفوا أن النهي عن النسيان صورة ، بينما في الحقيقة نهي عن سببه، وهو الغفلة عن دراسته وتكريره، كما احتاج من قال بأن "لا" ناهية في توجيه ثبوت الألف إلى القول بأنها مزيدة رعاية لفواصل الآي، فيلزم مما سبق وجوب إتباع قول جمهور المفسرين لأنه يخلو من كل هذا التكلف والله أعلم.

٥- الحـــذف:

امتدح الإمام عبد القاهر الجرجاني هذا الفن البلاغي بقوله:" هو بابٌ دقيقُ المسلك لطيفُ المأخذ عجيبُ الأمر شبيه بالسِّحر فإنَّك ترى به ترك الذِكْر أفصحَ من الذكر والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن"(١).

والحذف يتصور في كل أجزاء الجملة (المسند إليه والمسند، المتعلقات).والملاحظ على الحذف في هذه السورة الكريمة كثرة حذف مفاعيل الأفعال المتعدية لرعاية توافق الفاصلة القرآنية بين الأفعال التي حذفت مفاعيلها، وقد تنوعت الأغراض والأسرار البلاغية لهذا الحذف.

والملاحظ أيضا كثرة حذف مفاعيل الأفعال التي لم تقع في الفاصلة لو أننا تأملنا كل الأفعال المتعدية لتلك السورة الكريمة لوجدنا أن أكثرها قد حذفت مفاعيلها بوجه عام، وأن الأفعال التي لم تحذف مفاعيلها قليلة جدا، كما حذف الموصوف وبقيت الصفة في موضع واحد.

فالأفعال التي حذفت مفاعيلها هي {خلق}،وتقديره: خلق كل شيء، والسر البلاغي من وراء حذفه هو الاختصار وإفادة العموم، والفعل {فسوى}وتقدير المفعول المحذوف: فسوى خلقه، والسر البلاغي هو إرادة الاختصار ورعاية الفاصلة وإفادة العموم، والفعل {قدر} والتقدير: قدر لكل حيوان ما يصلحه، والسر البلاغي هو الاختصار وإفادة العموم والفعل {فهدى} أي فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به، والسر البلاغي من وراء حذف المفعول هنا هو الاختصار ورعاية الفاصلة والعموم، والفعل{سنقرئك} الكاف في محل نصب مفعول به أول، وحذف المفعول به الثاني، والتقدير: سنقرئك يا محمد القرآن، والسر البلاغي هو الاختصار ، والفعل{فلا تنسى} والتقدير: فلا تنسى ما يقرأ عليك، والسر البلاغي

---

(١) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر:(١٤٦)..

هو الاختصار ولأن ما قبله يدل عليه، والفعل {شاء} في قوله:{إلا ما شاء الله}.

وهذا الحذف لمفعول الفعل "شاء" كثير في القران الكريم، والتقدير إلا ما شاء الله، أن ينسيكه، برفع تلاوته للمصلحة ، والسر البلاغي هو الاختصار لدلالة ما قبله.عليه.

والفعل {فذكر}، والتقدير: فذكر الناس ، والفعل:{يخشى}، والتقدير: سوء العاقبة، وهناك نوع آخر من الحذف ورد في السورة الكريمة، وهو حذف جملة فعل الشرط، في قوله تعالى:{فذكر}، فالفاء رابطة لجواب شرط مقدر تقديره: إن نفعت الذكرى، من يتذكر فذكر، أو فاء الفصيحة أي: إن علمت أنك من أرباب الفيوضات الكمالية بهدايتنا وتوفيقنا فذكر[1].

وحذف المفعول من الفعل {فذكر} للاختصار أي: فذكر الناس، وهناك نوع آخر أيضاً وهو حذف جملة جواب الشرط في قوله:{إن نفعت الذكرى}، فالجواب محذوف، دل عليه ما قبله، أي إن نفعت الذكرى فذكر، وللزمخشري سؤال لطيف وإجابة ألطف، حيث قال:" فإن قلت : كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع فما معنى اشتراط النفع ؟ قلت : هو على وجهين أحدهما : أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوا وطغيانا وكان النبي -صلى اله عليه وسلم- يتلظى حسرة وتلهفا ويزداد جدا في تذكيرهم وحرصا عليه فقيل له : {وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ}(ق:٤٥) {فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ }(الزخرف:٨٩) {فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ}(الأعلى:٩)، وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير . والثاني : أن يكون ظاهره شرطا ومعناه ذما للمذكرين وإخبارا عن حالهم واستبعادا لتأثير الذكرى فيهم وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم

(1) إعراب القرآن الكريم وبيانه محي الدين الدرويش: (: ٤٥٠).

كما تقول للواعظ : عظ المكاسين إن سمعوا منك . قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك وأنه لن يكون"[1] .

على أن ابن خالويه ذكر أن بعض العلماء ذهب إلى أن "إن" في قوله تعالى:{إن نفعت الذكرى} بمعنى "قد" أي قد نفعت الذكرى، وعلق على ذلك بقوله:وهو بعيد جدا، ولا يليق بأسلوب القرآن الافتراض والمجازفة.[2] .

ومن حذف الجملة أيضا قوله تعالى:{بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى}، وبل إضراب عن جملة مقدرة ينساق إليها الكلام وتقدير هذه الجملة : انتم لا تفعلون ما فيه صلاح أمركم بل تؤثرون الحياة الدنيا.

كما ورد حذف الموصوف وبقيت الصفة في موضع واحد، في سورة الأعلى في قوله تعالى:{والآخرة خير وأبقى}، والتقدير: والحياة الآخرة خير وأبقى، والسر البلاغي من وراء هذا الحذف هو إبراز تلك الصفة والنص عليها.

٦- التعريف والتنكير:

دواعي اختيار المعرفة:

من المعلوم أن دلالة النكرة تغاير دلالة المعرفة، كما أن دلالات المعارف ليست سواء، بل بينها فروق كثيرة فطن إليها البلاغيون وبينوا أنها هي السبب الرئيس من وراء اختيار المتكلمين لها، وتفضيلهم بعضها على بعض في الاستعمال، فكل يختار منها ما يناسب مقامه، حتى يتصف كلامه بأنه مطابق لمقتضى حاله، وهذا الاختيار والتفاضل ليس بين النكرة والمعرفة أو بين أحد أنواع المعارف لا يتوقف على المسند إليه أو المسند فحسب، وإنما يشمل أيضا متعلقات الفعل والتوابع، فهناك دواع وأسباب وأسرار بلاغية متحققة، في وراء اختيار التعريف أو التنكير أو إيثار التعريف بأحد المعارف عن الآخر، فهذه الأشياء"المسند

(1) إعراب القرآن الكريم وبيانه محي الدين الدرويش:(٤٥٢ط دار ابن كثير

(2) إعراب القرآن الكريم وبيانه محي الدين الدرويش:(٤٥٢)ط دار ابن كثير

– المسند إليه، – متعلقات الفعل– التوابع".

وسوف نحاول أن نبين بعض الأسرار والدواعي البلاغية من وراء استعمال الله تعالى لبعض أنواع هذه المعارف في سورة الأعلى. وقد دار التعريف في هذه السورة الكريمة حول التعريف بالضمير والعلم واسم الإشارة واسم الموصول والمحلى بال والمضاف إلى بعض ما سبق.

أولا– دواعي اختيار المعرفة ضميراً.

ورد مجيء الضمير معرفة في عدة مواضع، في قوله تعالى:{فجعله غثا أحوى}، وسره البلاغي أن المقام مقام حديث عن غائب فكان الكلام مطابقا لهذا المقام، وقوله:{سنقرئك فلا تنسى}وسره بيان إقبال الله على رسوله –صلى الله عليه وسلم– ، وقوله تعالى:{إنه يعلم الجهر وما يخفى} وسره البلاغي أن المقام اقتضاه ولإرادة الاختصار، الملاحظ من وجازة الضمير .وقوله تعالى:{ويتجنبها الأشقى} وسره البلاغي اقتضاء المقام ذلك والاختصار، وقوله تعالى:{ثم لا يموت فيها ولا يحيى} لاقتضاء المقام ذلك، وقوله:"وذكر اسم ربه"لاقتضاء المقام ذلك والإيجاز.

ونلاحظ أن التعريف لم يقتصر على المسند إليه بل تعداه إلى غيره من المتعلقات كما سبق.

ثانياً: دواعي اختيار المعرفة علماً.

ورد التعريف بالعلمية في عدة مواضع من هذه السورة الكريمة.

منها: قوله تعالى:{إلا ما شاء الله}، وسره البلاغي ودواعيه الذي اقتضاه هنا هو إرادة اختصار المتحدث عنه، وهو الله تعالى في ذهن المتلقي باسمه الخاص به، فلفظ الجلالة الله لا يختص إلا بالله ليمتاز عما عداه، كما يلمح أيضا إرادة الإشعار بتعظيم المتحدث عنه وهو الله تعالى.

وقوله تعالى:{صحف إبراهيم وموسى}، وسره البلاغي هو إرادة اختصار المتحدث عنه، وهو هنا سيدنا إبراهيم وموسى باسمهما الخاص بهما ليمتازا عما عداهما ولمعرفة المخاطبين بهما.

ثالثاً: دواعي اختيار المعرفة اسما موصولاً.

ورد التعريف باسم الموصول في عدة مواضع في هذه السورة الكريمة، منها: قوله تعالى:{الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى}، والسر في إيثار التعبير باسم الموصول أنه مبهم الدلالة لولا صلته الكاشفة للمراد والمعرفة حقاً، بما يراد الدلالة به عليه، وهذا الإبهام الأولى في اسم الموصول يحدث في نفس المتلقي تشوفا وتشوقا لمعرفة المراد به عن طريق صلته، فهو بسبب استثارته لداعي النفس إلى المعرفة، يعتبر من أدوات البيان التي تنفتح لها أبواب النفس انفتاحا تلقائيا، فتتلقفها بالدافع الذاتي إلى المعرفة ومن هنا تبدو لنا ميزة خاصة لاسم الموصول لا توجد في غيره، ويضاف إلى هذه الميزة أن صلة الموصول قد تتضمن مع التعريف بالمدلول عليه به، بيانا لمعان مهمة تؤدي بكلام تام بقصد المتكلم بيانها مع صياغتها في إطار مفرد هو جزء جملة، ويقصد توصيلها إلى من يوجه له الكلام[1].

فواضح أن السر البلاغي هو إرادة الوصف بما تضمنته صلة الموصول، كما جاء التعريف أيضا باسم الموصول في قوله تعالى:{الذي يصلى النار الكبرى}وسر إيثار التعريف به إبراز جملة الصلة والنص عليها، وجاء التعريف باسم الموصول:"" وسر إيثار التعريف به هنا زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، والآية السابقة دلت على أن من يتجنب الذكرى شقي يستحق النار واسم الموصول هنا أكد ذلك.

وقوله:{قد أفلح من تزكى} وسره إرادة الوصف بما تضمنته جملة الصلة.

رابعاً: دواعي اختيار المعرفة اسم إشارة.

ورود التعريف باسم الإشارة في قوله تعالى:{إن هذا لفي الصحف الأولى} وسر البلاغي من وراء التعريف به هو تمييز المتحدث عنه وهو أن الآخرة خير

---

(١) البلاغية العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: (١/٤٣٠).

وأبقى من الدنيا دار الفناء أكمل تمييز والنص على ذلك، ترغيبا للناس في الإقبال عليها وتنفيرهم في الدنيا الفانية.

خامسا: دواعي اختبار المعرف باللام:

ورد التعريف باللام في سورة الأعلى، وجاء التعريف بلام الجنس في قوله تعالى:{ويتجنبها الأشقى}، وقوله تعالى:{بل تؤثرون الحياة الدنيا}، وقوله تعالى:{والآخرة خير وأبقى}.

سادسا: التعريف بالإضافة

جاء التعريف بالإضافة في مواضع كثيرة في سورة الأعلى ولأغراض بلاغية تطلبها المقام مثل قوله تعالى:{سبح اسم ربك الأعلى}، ففي الآية إضافتان الأولى: اسم إلى رب، وكل من الاسم والمسمى في معنى الرب وإضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين أسلوب عربي كثر وروده في القرآن الكريم نحو قوله تعالى:{والدار الآخرة}، والدار هي الآخرة، وقوله:{ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ}(فاطر: ٤٣) والمكر هو السيئ، بدليل قوله تعالى:{ولا يحيق} فهذه أسلوب عربي جعل الاختلاف يبين اللفظين كاف في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه[1].

أما الإضافة الثانية فهي إضافة الرب إلى ضمير الرسول -صلى الله عليه وسلم- إضافة تشريفية ، ومثل هذه الآية الإضافة في قوله تعالى:{وذكر اسم ربه} فالأولى من إضافة الشيء إلى نفسه والثانية أفادت تشريف هذا العبد الذي ذكر الله فتشرف بالانتساب إليه.

أما الإضافة في قوله تعالى:{صحف إبراهيم وموسى}، فالغرض البلاغي منهما كونها أخصر طريق وأوجزه والمقام يقتضي الاختصار والإيجاز.

---

(١) أضواء البيان:(٧/٧٩٨).

٧- التقييد وعدمه:

أولا- التقييد بالنعت :

لاحظ البلاغيون أن المتكلم قد يقصد زيادة إفادة المتلقي معاني لا يكفي المسند والمسند إليه، للدلالة عليها وهي تتعلق بالمسند أو بالمسند إليه، أو بالإسناد في الجملة، وهذه المقيدات في الجملة هي المفاعيل والتوابع والمتتبع للتقييد في سورة الأعلى يجد أنها قليلة ولعل أظهرها النعت والحال والبدل والعطف، فالنعت وتعدده ورد في قوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى}، فتكرر النعت بالاسم الموصول ثلاث مرات، وكل من هذه النعوت مقصود لذاته، لتفصيل المنعوت وبيان استحقاقه للتنزيه من أجل تلك الصفات المتصف بها، وكذلك الوصف باسم الموصول أيضا في قوله تعالى:""، وهو من الوصف الكاشف المميز لموصوفه المعرفة .

وكذلك وصف الحياة بالدنيا في قوله تعالى:{ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى} والتقييد بالدنيا لإيضاح الموصوف الحياة، ويسمى هذا بالوصف الكاشف لأن الموصوف معرفة والصفة مميزة له، وتبقى الصفة، ويحذف الموصوف لدلالة القرينة عليه، {والآخرة خير وأبقى}، أي الحياة الآخرة، كما جاء التقييد بالنعت في قوله تعالى:{سيصلى النار الكبرى}، فالكبرى نعت للنار، والسر البلاغي هو التخويف من النار حتى يمتثل الناس لأمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

ثانياً- التقييد بالحال:

قرر البلاغيون أن في القيد بالحال مزيد فائدة يستفيدها المخاطب وهي التوكيد سواء كان التوكيد راجعا إلى توكيد عامل الفعل أو توكيد صاحب الحال، أو كان توكيدا لمضمون الجملة الاسمية، ولم يرد التقييد بالحال إلا في آية واحدة، على رأي بعض النحاة في قوله تعالى:{فجعله غثاء أحوى}.

قال ابن هشام في مغني اللبيب:" قول بعضهم في { أحوى} إنه صفة لغثاء

وهذا ليس بصحيح على الإطلاق بل إذا فسر الأحوى بالأسود من الجفاف واليبس، وأما إذا فسر بالأسود من شدة الخضرة لكثرة الري كما فسر {مدهامتان} فجعله صفة لغثاء كجعل فيما صفة لعوجا وإنما الواجب أن تكون حالا من المرعى وأخر لتناسب الفواصل"[1].

أي الأصل أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء ، لكن بعض المفسرين اعترض على جعل أحوى حالا مقدما، وحجتهم في ذلك أن إطلاق العرب أحوى على ما اشتدت خضرته من النبات غير نابت وعدم التأويل غير نابت، وعدم التأويل أولى من التأويل.

ثالثاً- التقييد بالبدل:

البدل: تابع هو المقصود بالحكم في الكلام، ويؤتى به بعد المبدل منه بدون وساطة عاطف بينهما، وجاء في سورة الأعلى في موضع واحد، هو قوله تعالى:{إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى}، وسره البلاغي هو التفسير والتوضيح بعد الإجمال لتثبيت المعنى فينفس المتلقي مع الإشعار بأن البعض "صحف إبراهيم وموسى بلغت أهمية كبيرة حتى نص عليها مفردة.

رابعاً- التقييد بالعطف:

العطف تابع يتوسط بينه وبين متبوعه حرف من حروف العطف، ولكل حرف دلالة يتحراها المتكلم البليغ حتى يطابق كلامه مقتضى حاله، والذي وقع التقييد به من حروف العطف في هذه السورة الكريمة أربعة أحرف، هي:(الفاء والواو و"ثم" وبل

جاءت الفاء في قوله تعالى:{ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ}، وهي مع

(١) مغني اللبيب: (٦٩٣).

الفعلين الأولين للترتيب والتعقيب بلا مهلة، للدلالة على أن الخلق مقدم على التسوية وإن كان حصول التسوية مقارناً لحصول الخلق، وكذلك عطف {فهدى} على {قدر}، لترتيب الهداية على التقدير، فكلما حصل التقدير حصل بأثره الاهتداء إلى تنفيذه، والفاء في قوله تعالى:{فجعله} للربط و السببية[(١)]، أو للترتيب والتعقيب بلا مهلة ، حيث عطف {جعله} على {أخرج} إشارة إلى قصر مدة خضرة النبات، وبالتالي قصر مدة الحياة الدنيا وسرعة زوالها[(٢)].

ومن حروف العطف المستعملة في هذه السورة الكريمة "الواو" في قوله تعالى:{الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى}، عطف على الاسم الموصول الذي وقع صفة ثانية للأعلى، والواو تفيد هنا مطلق الجمع، أي: أن الرب المستحق للتنزيه قد جمع كل هذه الصفات ، وجاءت الواو مفيدة للجمع أيضاً في قوله تعالى:{إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ }، فعلم الجهر والخفاء عنده سواء.

ومن حروف العطف أيضاً المستعملة في هذه السورة الكريمة "ثم" في وقوله تعالى:{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ }، ودلالتها هنا الترتيب والتراخي في الرتبة من حيث الشدة، فصلى الأشقى للنار مقدّم على حاله فيها من العذاب، فترجيحه بين الحياة والموت أفظع من الصلي في النار[(٣)].

ومن حروف العطف أيضاً "بل" في قوله تعالى:{بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا }، وهي هنا تفيد عطف جملة {تؤثرون الحياة الدنيا} على ما سبق، كما

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي:(٤/٢٩٨).

(٢) التحرير والتنوير:(٣٠/٢٥٥).

(٣) الكشاف، الزمخشري:(٤/٧٤٠).

أنها تفيد مع العطف الإضراب، أي انصراف القول أو الحكم إلى ما يأتي بعد"بل".

٨- الخروج عن مقتضى الظاهر:

من فنون الخروج عن مقتضى الظاهر التي جاءت في سورة الأعلى :

١- **الالتفات**، وهو التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث : التكلم- والخطاب - والغيبة، مع أن الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريق المختارة أولاً، دون التحول عنها"[(١)]، وجاء الالتفات في قوله تعالى:{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ }، وفيه انتقال من الغيبة إلى التكلم ، الغيبة في قوله تعالى:{ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ }، لأن الاسم الظاهر من قبيل الغيبة، فكان مقتضى الظاهر أن يستمر أسلوب الغيبة، فيقول:{سيقرئك} إلا أن الله تعالى حوّل الأسلوب من الغيبة إلى التكلم لما فيه من الإقبال على المخاطب وهو الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وفي هذا تكريم لشخصه.

وبين قوله تعالى:{سنقرئك فلا تنسى}وقوله تعالى:{إلا ما شاء الله} أسلوب التفات آخر وانتقال من التكلم إلى الغيبة لتربية المهابة، والإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المتشعبة لسائر الصفات[(٢)].

---

(١) البلاغة العربية، الميداني:(٤٧٨/١).

(٢) تفسير أبي السعود:(١٤٤/٩).

٢- **القلب:** ومن خروج الكلام على مقتضى الظاهر في سورة الأعلى: القلب، ويكون بإجراء التبادل بين جزءين من أجا الجملة وجا في قوله تعالى:{ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ }، جوز بعض العلماء أن تكون الآية جارية على أسلوب القلب وأن الأصل:"ونيسر لك اليسرى"، أي نجعلها سهلة لك فلا تشق عليك، والسر البلاغي هو المبالغة في ثبوت الفعل للمفعول به، والرسول -صلى الله عليه وسلم-.

٩- القصر:

جاء أسلوب القصر قي موضع واحد في سورة الأعلى في قوله تعالى:{ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ } وطرق هذا القصر هو الاستثناء، ونوعه هنا ناقص، أي مفرغ مثبت، والإثبات أتى من كونه لم يدخله النفي أو شبهه، وكونه ناقصاً أو مفرغاً لكون المستثنى منه محذوفاً ، والخطيب اشترط تحقق ثلاث صفات في الاستثناء المفرغ:

١- أن يكون المستثنى منه عاماً.
٢- أن يكون المستثنى منه مناسباً للمستثنى في جنسه.
٣- أن يكون مناسباً له في صفته.

فإذا تحققت هذه الثلاثة تولد معنى القصر، فالاستثناء في الآية مفرغ من الفعل"تنسى"، وما موصولة بمعنى الذي هي المستثنى، والتقدير: إلا ما شاء الله أن تنساه.

١٠- الإيجاز

الإيجاز لغة: اختصار الكلام وتقليل ألفاظه مع بلاغته.

وفي اصطلاح البلاغيين : هو التعبير عن المعاني بألفاظ أقل منهما ، وهو ينقسم إلى قسمين: إيجاز القصر، وإيجاز بالحذف.

أما إيجاز القصر فلم يقع في سورة الأعلى.

أما إيجاز الحذف فذكروا أن الحذف ينقسم إلى خمسة أنواع:

الاقتطاع – والاكتفاء – والتضمين – والاحتباك – والاختزال[1]، وقد جاء في سورة الأعلى نوعان فقط من هذه الأنواع الخمسة هما:

الاحتباك، والاختزال.

أولاً- الاحتباك، وبعضهم جعله ضمن مباحث علم البديع، وبعضهم أدخله ضمن مباحث علم المعاني كنوع من أنواع الإيجاز بالحذف، وعلى هذا الرأي نميل.

وعرفوه بأنه: أن تحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت في الأول[2]، وعرفه بعض المحدثين بقوله: هو أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويحذف من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل[3].

هذا وقد جاء الاحتباك في سورة الأعلى في قوله تعالى:{بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ}ذكر الإيثار والدنو أولاً يدل على الترك والعلو ثانياً، وذكر الخير والبقاء ثانياً يدل على ضدهما أولاً، وسر ذلك أنه ما يؤثر الدنيء إلا دنيء فذكر أولاً لأنه أشد في التنفير وذكر الخير والإبقاء ثانياً لأنه أشد في الترغيب[4]، كما جاء الاحتباك في قوله تعالى:{وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ

---

(١) البلاغة العربية:(٤٦/٢).

(٢) القول البديع في علم البديع، مرعى بن يوسف الحنبلي، تحقيق ودراسة:د/محمد بن علي الصامل:(٨٠١)، ط كنوز المعرفة.

(٣) البلاغة العربية، الميداني:(٥٤/٢).

(٤) نظم الدرر:(٤٠٢/٨).

فَصَلَّىٰ }ذكر أولاً الصلي دليلاً على حذف ضده ثانياً ثانياً، وثانياً التزكية دليلاً على حذف ضدها أولاً"[1].

ثانياً- الاختزال، وهو كل حذف في الكلام لا يدخل في واحد من الأقسام الأربعة (الاقتطاع- الاكتفاء- التضمين- الاحتباك)، وقد تتبع النحاة والبلاغيون هذا النوع من الحذف، فوجدوا أنه يشمل حذف الاسم والفعل والحرف ،وحذف جملة أو عدة جمل وحذف كلام طويل في قضية ذات أحداث كثيرة

وقد تحدثنا عما جاء في سورة الأعلى من هذه الأنواع عند حديثنا عن الحف مما فيه غناء عن ذكره هنا.

١١- الإطناب

صور الإطناب عند البلاغيين كثيرة، جاء منها في سورة الأعلى الإطناب بالتكرير في قوله تعالى:{ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ }حيث كرر الاسم الموصول "الذي" ثلاث مرات، مع وجود حرف العطف "الواو" الذي يغني عن هذا التكرير، والسر البلاغي لهذا التكرير هو الاهتمام بالاسم الموصول المكرر وصلته حتى يتضح مدى استحقاق الله -عز وجل- للتنزيه؛ ولذا كان الإطناب في موقعه هذا مما يتطلبه المقام فهو مناسب تمام المناسبة للسياق.

كما جاء الإطناب بالإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال في قوله تتعالى:{إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ}، فالنظم القرآني أجمل أولاً في قوله:{إن هذا لفي الصحف الأولى} وفصل ثانياً في قوله:{صحف إبراهيم وموسى}، قال أهل البيان: إذا أردت أن توضح ثم تبهم

(١) نظم الدرر:(٨/٤٠١).

فإنك تطنب.

وهذه الآية أيضاً من قبيل الإطناب بالتذييل، وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها توكيداً لمنطوقها أو لمفهومها ، فهذه الآية تذييل للكلام السابق وتنويه به بأنه من الكلام النافع.

ومن صور الإطناب في سورة الأعلى "الاحتراس" وهو زيادة إطنابية في الكلام يدفع بها المتكلم إيهاماً اشتمل عليه كلامه ، أو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه اعتراض، فيفطن له فيأتي بما يخلصه، وهذا هو الفرق بينه وبين التكميل[1].

وجاء الاحتراس في سورة الأعلى في قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ } لأن قوله :{لا يموت} بنفي الموت عن الأشقى قد يتوهم منه السامع أنه قد استراح من العذاب، فكان هذا الاحتراس {ولا يحيى} ميلاً هذا التوهم.

١٢- الكناية

الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ.

وجاءت الكناية في سورة الأعلى في قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ }فهذا اللفظ أطلق وأريد به لازم معناه من نفي راحة الأشقى من العذاب بناء على أن لازم الإحراق:الهلاك، ولازم الحياة: عدم الهلاك[2]، وهذه الكناية قد أبرزت المعنى مصحوباً بالدليل، فكان نفي خلاصهم وراحتهم آكد وأقوى وأبلغ.

---

(١) القول البديع:(١٥١).

(٢) التحرير والتنوير:(٣٠/٢٤٥).

١٣- الطبـــاق

هو الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة.

جاء الطباق في قوله تعالى:{إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ }ليجمع لذاته -سبحانه وتعالى- بين هذين الأمرين (الجهر والخفاء) المتضادين في نظر الناس، أما عنده -سبحانه- فهما سواء في إحاطة علم الله تعالى

وجاء الطباق أيضاً في قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ }

فطرفا الطباق منفيان.

١٤- براعة الاستهلال

من فنون البديع التي جاءت في سورة الأعلى براعة الاستهلال، ومعنى البراعة تعني التفوق ، والاستهلال: الافتتاح والابتداء، وقد عرّف ابن المقفع براعة الاستهلال بقوله: ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك[1] ، وجاءت براعة الاستهلال في سورة الأعلى في قوله تعالى:{سبح اسم ربك الأعلى}فهذا الافتتاح بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن يسبح اسم ربه بالقول يؤذن بأنه سيلقى إليه عقبه بشارة وخيراً له، وذلك قوله:{سنقرئك فلا تنسى}.

١٥- الجناس الاشتقاقي:

وهو ما يجتمع فيه اللفظان في أصل الاشتقاق، وجاء في موضعين:

الأول: قوله تعالى:{ونيسرك لليسرى}.

وجاء الجناس الاشتقاقي أيضاً في قوله تعالى:{فذكر إن نفعت الذكرى}.

---

(١) المعجم المفصل في علوم البلاغة ذ/إنعام فوال عكاوي:(٢٦١) ط/دار الكتب العلمية.

فهرس المصادر والمراجع

١- أساليب العطف في القرآن الكريم، مصطفى حميدة، ط/مكتبة لبنان.

٢- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني.

٣- أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، للكرماني، دراسة وتحقيق عبد القادر عطا، ط/دار الفضيلة.

٤- أضواء البيان في تفسير القرآن، بالقرآن، الشنقيطي.

٥- إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، ط/دار ابن كثير.

٦- الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، بهجت عبدا لواحد صالح، ط/دار الفكر.

٧- إيجاز البيان في سور القرآن، محمد علي الصابوني، ط/مكتبة الغزالي

٨- البحر المحيط، أبو حيان.

٩- البرهان في علوما القرآن، الزركشي

١٠- البلاغة العربية ، أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط/دار القلم، دمشق.

١١- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور.

١٢- تفسير أبي السعود.

١٣- التفسير الكبير، الفخر الرازي ، ط/دار الكتب العلمية ، طهران.

١٤- جامع البيان ، الطبري.

١٥- الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي

١٦- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ، محمود صافي ، ط/دار الرشيد.

١٧- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي

١٨- حاشية محيي شيخ الدين زاده على تفسير البيضاوي

١٩- خصائص التراكيب ، محمد أبو موسى ط/ وهبة.
٢٠- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق شاكر.
٢١- روح المعاني، الألوسي.
٢٢- فتح القدير، الشوكاني
٢٣- فضائل القرآن الكريم ، المستغفري، تحقيق وتخريج د/أحمد فارس السلوم.
٢٤- القرآن الكريم .
٢٥- القول البديع في علم البديع، مرعى بن يوسف الحنبلي، تحقيق ودراسة محمد بن علي الصامل، ط/كنوز اشبيليا.
٢٦- الكشاف، الزمخشري
٢٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية ط/ الكتب العلمية.
٢٨- معترك الأقران ف إعجاز القرآن ، السيوطي
٢٩- مغني اللبيب ، ابن هشام، ط/ دار الفكر.
٣٠- مفتاح العلوم، السكاكي.
٣١- النظم البلاغي بين عبد القاهر والمتأخرين ، د/حسين إسماعيل عبد الرزاق.
٣٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي العاملي، ط/الكتب العلمية.